ISSN 2335-1160 EISSN 2602-5175

مجلة المداد

الهجرة غير النظامية واجتياح أوروبا: العواقب غير المتوقعة للإستعمار والحداثة

Irregular Migration and the Invasion of Europe: The Unexpected Consequences of Colonialism and Modernity

أ.د عادل الوشاني[1]

[1] جامعة قابس (تونس)،

تاريخ الارسال: 08-08-2024	تاريخ القبول : 26-08-2024	تاريخ النشر 16-09-2024

ملخص:

يشهد العالم على موجات تسونامي بشرية تنطلق، في إطار الهجرة غير النظامية، من الدول النامية وخاصة الدول الافريقية تكتسح بقوة العدد وتثقله سواحل أوروبا.

ولقد تبين لنا أن سببين أساسيين جوهريين كانا وراء تعاظم هذه الظاهرة، الأول هو العواقب غير المتوقعة للاستعمار Conséquences imprévues du colonialisme والثاني هو العواقب غير المتوقعة للحداثة Conséquences imprévues de la modernité

هذا الوضع خلق كابوسا لدى الغرب مفاده أن أوروبا ستصبح بكل بساطة ملكا للمهاجرين بعد وقت ليس بالبعيد! غير أن هذا الكابوس صنعه الغرب نفسه بعواقب لم يتوقعها وذلك باستعماره للدول النامية وبذهابه بعيدا في حداثة قضت على الأسرة وعلى فكرة الانجاب...

الكلمات المفتاحية: الهجرة غير النظامية، الغرب الأوروبي، العواقب غير المتوقعة للاستعمار، العواقب غير المتوقعة للحداثة.

Abstract:

Le monde est témoin d'un tsunami humain de migration irrégulière en provenance des pays en développement, en particulier des pays africains, qui submerge les côtes de l'Europe.

Nous avons constaté que deux raisons principales expliquent la croissance de ce phénomène : les conséquences imprévues du colonialisme et les conséquences imprévues de la modernité

Cette situation a créé un cauchemar pour l'Occident, qui pensait que l'Europe deviendrait tout simplement la propriété des immigrés dans un avenir pas si lointain ! Cependant, ce cauchemar a été créé par l'Occident lui-même, avec des conséquences imprévues, par la colonisation des pays en voie de développement et par l'excès d'une modernité qui a éliminé la famille et l'idée de procréation...

Keywords: L'immigration clandestine, l'Occident européen, Conséquences imprévues du colonialisme, modernité Conséquences imprévues de la

1- مقدمة

ان عبور شخص ما للحدود يفترض على الأقل، إجراء فحص من قبل الشرطة لإضفاء طابع الشرعية والنظامية على هذا العبور. وحتى عندما يُمنح حق الإقامة بحرية كبيرة، تظل مسألة تصريح العمل قائمة. وذلك بمجرد وجود قواعد تقنن هذا العمل، وعليه يمكن أن تنشأ وضعيات غير نظامية وغير قانونية لعدد كبير من المهاجرين في دول المهجر.

والحقيقة فإنه لا يخلو بلد من مهاجرين غير نظاميين.

غير أن ما نقرأه اليوم من تقارير وكتب ودراسات حول تضخم ظاهرة الهجرة غير النظامية من مختلف الدول النامية ، وخاصة دول إفريقيا، الى أوروبا، وما نعايشه ذاتيا في الاجتماع التونسي كعينة من المجتمعات الافريقية النامية، من هجرة الشباب غير النظامية الى اوروبا وخاصة فرنسا وإيطاليا، وما يتناهى الى أسماعنا من أخبار عن حالات هجرة لا حدّ لعددها، وكل ذلك الكم الهائل من الصّور والفيديوهات التي تعرض يوميا عبر مختلف وسائل الاعلام والتواصل الاجتماعي مئات الالاف من المهاجرين غير النظاميين المتوجهين من الدول النامية وخاصة دول افريقيا الى أوروبا سواء عبر البحر أو عبر دول البلقان، والأخبار الفاجعة للكم المخيف للغرقى وصور وفيديوهات الجثث الطافية.. كل ذلك يجعلنا نتيقّن أننا بصدد وضع انفجاري غير مسبوق لظاهرة الهجرة غير النظامية.

هذه الظاهرة بلغت مستوى من الطفوح والوضوح حتى انها لا تحتاج الى استنطاق لأنها أصبحت في حد ذاتها اعترافا.

إن المشهد يعكس اجتياحا بأتم معنى الكلمة. اجتياح الدول الأقل ثراءً للدول الأكثر ثراءً.. والمثير للإعجاب والتثمين أن هذا الاجتياح كان ألفريد سوفي قد توقع حدوثه منذ سنة 1985 حينما ألف كتابا عنوانه: أوروبا

المجتاحة: الجنوب سوف يجتاح الشمال بعد ثلاثين عاما[1]. كتب فيه أن الجنوب سوف يبدأ باجتياح الشمال من خلال موجات كثيفة من الهجرة وذلك بداية من مستهل سنة 2015.[2]

وها نحن نشهد، شهود العين، على موجات تسونامي بشرية تنطلق، في اطار الهجرة غير النظامية، من الدول النامية وخاصة الدول الافريقية تكتسح بقوة العدد وثقله سواحل أوروبا.

هذا الدفق الثقيل للهجرة، إذا قرأناه في ضوء المنهج التاريخي فنحن بإزاء ظاهرة تكرارية في التاريخ. فتاريخ البشرية ليس سوى تعاقب هجرات كبرى أسبابها مختلفة، ولكن متشابهة، طبيعية كحالات الجفاف والقحط ومختلف الجوائح وانتشار الأوبئة. أو بشرية كالحروب والاستعمار والحروب الأهلية والابادات الجماعية.

هذا المنهج يخفض الحيرة المعرفية ويجعل الظاهرة عادية فهي من سنن التاريخ.

أما إذا قرأنا هذا الدفق في ضوء المنهج السوسيولوجي فنحن بصدد معايشة ذاتية للحظة تشكل ظاهرة ديموغرافية اجتماعية حضارية كبرى، أي أننا بإزاء ديناميكية تغيير كبرى في زمن اعتمالها وحين وقوعها وهو الامر الذي يشحذ الحيرة المعرفية ويشرع الباب واسعا أمام سؤالا بالغ الجدية: ما هي أهم العوامل المحركة لهذه الظاهرة؟

وبصياغة أخرى: ما هي أسباب تعاظم ظاهرة الهجرة غير النظامية من الدول النامية وخاصة دول افريقيا الى أوروبا؟

[1] انظر: أحمد القديدي كيف تنبأ عالم الديمغرافيا باجتياح أوروبا منذ 1985، مجلة عربي 21. موقع تاكتروني، تاريخ الزيارة 11. 5. 2023.
وفي ضوء الاستفادة من هذه الدراسة واسترشادا بها، عدنا الى كتاب الفريد سوفي وهو التالي:
Alfred Sauvy L'Europe submergée : Sud-Nord dans 30 ans – Paris : Dunod 1987.

[2] علما وأن ألفريد سوفي لا يتهافت فهو عالم الاجتماع والديموغرافيا الفرنسي الأشهر، مؤسس المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية (INED) والمسؤول عن "دراسة التركيبة السكانية الفرنسية من جميع جوانبها" والعمل على الزيادة الكمية والتحسين النوعي للسكان" وهو المستشار الديمغرافي المقرب لأعلى المسؤولين في الدولة الفرنسية: رئيس الوزراء ليون بلوم ثم رئيس الوزراء بول رينو ثم الرئيس الجمهورية فرانسوا ميتيران

نعتقد ان سببين أساسيين جوهريين كانا وراء تعاظم ظاهرة الهجرة غير النظامية الى اوروبا: الأول هو العواقب غير المتوقعة للاستعمار Conséquences imprévues du colonialisme والثاني هو العواقب غير المتوقعة للحداثة Conséquences imprévues de la modernité

2- العواقب غير المتوقعة للاستعمار Conséquences imprévues du colonialisme:

لقد خطّطت الدول الأوروبية الاستعمارية، من وراء استعمارها للدول النامية ومنها الدول الافريقية إلى تحقيق أهداف محددة يمكن أن نجملها على النحو التالي:

1) الحصول على أوسع مجال ممكنٍ من مناطق النفوذ في العالم بهدف تأمين الأسواق لمنتجاتها الصناعيَّة[1]. واستغلال كل مقدرات المستعمرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والجغرافية وذلك لخدمة مشاريعها الهيمنية وانجاح برامجها التوسعية. ولقد عملت على نهب خيرات هذه الدول، وألزمتها بانتهاج منوال اقتصادي تابع ومتخارج. وقيدتها بالديون المتصاعدة، وجعلتها مجتمعات مفتوحة، بالمعنى التشومسكي للمفهوم، أي مجتمعات هشة التحصين ويمكن تطويعها والسيطرة عليها اقتصاديا وسياسيا وثقافيا واجتماعيا، وإبقاء الأغلبيَّة الكاسحة من سكَّان تلك البلدان في حالةٍ من الفقر والبطالة أو العمل الهش وبأجور محدودة، وتكريس منظومة تعليم تعمل على توفير يد عاملة وموارد بشرية مرتبطة بحاجات اقتصاد تابع ومتخارج[2]،

2) كما عملت على تدمير ثقافة هذه الدول وإحلال ثقافتها محلها وذلك بنشر منمطاتها الثقافية وخاصة لغتها في نظمها التعليمية والإعلامية والعمل الناعم على التطبيع معها والاحتضان الطوعي لها [3].

[1] حسن حمدان العلكيم: قضايا إسلاميَّة معاصرة. مركز الدراسات الآسياوية، ط 2 القاهرة. 1997.

[2] **محمّد جلال بن سعد: الانقطاع المدرسي : دراسة علميّة تحليلية للنموذج التونسي. موقع الكتروني: تحاليل. تاريخ الزيارة 29.3.2023.**

[3] عبد الله أبو هيف: الغزو الثقافي والمفاهيم المتصلة به، مجلة النبأ، العدد (63)، نوفمبر 2001.

وممارسة ما يسميه روبرت فيلبسون الإمبريالية اللغوية [1]، والعمل على إعادة تشكيل الفكر وإضعاف انتمائه لتراثه الحضاري والثقافي، وفرض ثقافتها على أنَّها الثقافة الوحيدة القادرة على نقلها من التخلف الى التطور والتحضر.

هذا بصفة اجمالية ما خططت له الدول الاستعمارية الأوروبية، وعملت على تحقيقه في مستعمراتها. وفي الحقيقة لقد تحقق الجانب الأكبر من هذه المخططات، ولكننا لسنا في وارد عرض ذلك وتقييمه. ذلك أن الذي يعنينا في هذه الدراسة هو العواقب غير المتوقعة التي ترتّبت عن هذه المخططات وكيف كانت هذه العواقب وراء تضخم ظاهرة الهجرة الى أوروبا، وخاصة الهجرة غير النظامية.

ان الاقتصاد المتخارج الذي فرضته الدول الاستعمارية الاوروبية على مختلف مستعمراتها ومنها الافريقية، والذي يرتبط عضويا باقتصادياتها، شلّ كل امكانيات هذه الدول الفقيرة في فكّ الارتباط، وهذا ما خططت له هذه الدول الاستعمارية، غير أن الذي لم تخطط له هو أن هذا الاقتصاد خلق ما يمكن أن نسميه بفقراء المستعمرات من عاطلين عن العمل وعاملين في مهن هشة وأصحاب دخل محدود. هؤلاء عددهم غير هيّن، ولقد تخارج تمثلهم للنجاح المهني والترقي الاجتماعي والطموح وأصبحوا لا يتصورون الخلاص من الفقر إلا في الدول الاستعمارية نفسها وذلك بالهجرة إليها كحل أمثل للعمل وللترقي الاجتماعي.

هؤلاء البؤساء الذين تركهم الاستعمار لأقدارهم في مهب رياح الفوضى، هبّوا، من فرط الجوع والخوف وتلبية لغريزة البقاء، ليجتاحوا القارة التي هي أقرب إليهم ليس جغرافيا فقط، بل وثقافيا ولغويا وتاريخيا لأنها كانت تستعمر أرضهم وتنهب خيراتهم وتفرض عليهم ثقافتها ولغتها ودينها[2].

[1] Phillipson, R. , L'impérialisme linguistique édition indienne éd. Delhi : Oxford University Press 2007 .

[2] علي ثابت نظام الأسرة بين تراحمية الاسلام وتفكيكية الحداثة مجلة العلوم الاجتماعية – جامعة الأغواط- المجلد:7 عدد: 82جانفي 2018.

ويزداد حرص هؤلاء الفقراء على الهجرة خاصة وأن مؤشرات التنمية في بلدانهم غير مريحة في مقابل تزايد عدد السكان بمعدل غير مسبوق وهو الأمر الذي ينذر بشكل قاطع بتراكم أزمة التشغيل واستفحال البطالة، فنسبة التزايد في بلدان المغرب العربي مثلا بلغت 3٪.

كما أن الاستعمار الثقافي بما مارسه من أضعاف لمشاعر الاعتزاز بالهوية الثقافية، وبما غرسه من شك فردي وجماعي في الكفاءة الذاتية، وبما كرّسه من رغبة في الارتباط بالغرب وبمنمّطاته الثقافية، قد خلق شريحة واسعة من المتغربنين ، أي المتمثلنين بمنواله القيمي والثقافي. هؤلاء أغلبهم من النخب السياسية والفكرية والأكاديمية والاعلامية وأصحاب المعهن العليا كالأطباء وأصحاب المال.

هؤلاء أدوا للغرب دورا، لا شك أنه خطط له وبرمج، انطلاقا من وعيه بأن التَّغريب أحدُ أَخطَر أهدافه وأعظم وَسائل سيطَرته على الشُّعوب واحتِوائها فِكريا وثقافيا, ولن يَجدِ أوفَى لمَشروعِه, ولا أقدَر على إنجازه من أبنائه الذين صَنَع على عَينِه [1] ، وذلك بأن تبنوا مناويله الفكرية والثقافية والقيمية، وعملوا على نشرها وتثبيتها في مجتمعاتهم. غير أن الذي لم يخطّط له الغرب هو أن تمثلهم للقيمة الاعتبارية والوجاهة الاجتماعية للفرد، نتيجة ما مارسه عليهم من استحواذ حضاري، قد ارتبط به بوثوق، فهم يرون أن الفرد يكتسب قيمته الحقيقية ووجاهته الفعلية حينما ينتسب الى الغرب ومختلف منظماته.

هؤلاء حتى اذا لم يستقروا في الغرب فانهم انتموا اليه بأفكارهم وقيمهم وممارساتهم. ولقد انعكس ذلك على نظرتهم لمستقبل أبنائهم ويتجلى ذلك في حرصهم الصارم والقاطع على ترحيلهم للغرب وذلك للدراسة وللعمل، متوخين في سبيل ذلك كل الوسائل النظامية الممكنة، فإن تعذرت فالوسائل غير النظامية. وهذا ما زاد في دفق هذا النمط من الهجرة.

إن الغرب تكرس في الوعي المتخارج لفقراء المستعمرات ولمتغربنيها، بيئة ضامنة للنجاح، وموثوقة بشكل يكفي لإثارة إرادة قوية للسفر اليه. قوية بما يكفي للمخاطرة الحقيقية المحفوفة بالموت في سبيل الوصول اليه، قوية أيضا بما يكفي لمنح المهربين أو الوسطاء الذين يساعدون على الوصول اليه مبالغ طائلة تتكبد كل العائلة، خاصة إذا

[1] سيرج لاتوش، " تغريب العالم "، المؤسسة العربية للنشر والابداع، 1993.

كانت معوزة، قساوة جمعها على حساب ضروریاتها. إن الوعي المتخارج انتقائي في تخيلاته فهو لا يغادر أمل النجاح، ولكن هذا الأمل لا يخالجه الشك وإنما هو مؤكد. وهذه مفارقة، ولكنها حقيقية، إذ يرتقي الأمل الى مستوى الوثوق. فالمهاجر غير النظامي، المذهول، لا يرى في عملية المخاطرة البحرية أو البرية إلا وجهها الرابح، فهو سوف يقطع الرحلة بنجاح مؤكد من ضفة البؤس والفشل الى ضفة السعادة والنجاح. وعليه فإن الثمن المرتفع لتهريبه سيسترده بسرعة منذ رواتب العمل الأولى.

والنتيجة لكل هذا، ما نشهده، كما أسلفنا، من موجات تسونامي بشرية لا نتوقع أنها سوف تتوقف قريبا وإنما نتوقع ارتفاع نسقها، تنطلق، في إطار الهجرة النظامية وخاصة غير النظامية، من مختلف الدول النامية وخاصة دول افريقيا لتكتسح بقوة العدد وثقله سواحل أوروبا.

إن الفريد سوفي قرأ جيدا السيرورة التاريخية لظاهرة الهجرة نحو أوروبا وذلك في ضوء الأرقام والظواهر والمتغيرات، واستشرف صيرورتها كنتيجة حتمية لمقدماتها، وسمى الأسماء باسمائها: الجنوب سوف يجتاح الشمال.

والحقيقة نحن نتبنى هذا التوقع ونبني عليه.

نتبناه بالمنهج الاستقرائي العقلاني الذي اعتمده سوفي، ونتبناه بما نعايشه من دفق هائل للمهاجرين الأفارقة نحو الغرب الأوروبي نبني على أساسه فرضيات يميل المنطق الى تثبيتها، ونتبناه أ بمنطق يرتاح له الحسّ المشترك وأساسه قاعدة لعبية وهي لعبة العقاف المرتد Boomerang، وهو منطق لا يخلو من صواب. ومن دلالات كلمة Boomerang في لغتها الأجنبية تأثير الكيد المرتد. وهو المعنى الذي نرتاح لاستعماله وله مثيل في تراثنا وهو ارتداد الكيد الى نحره.

ونتبناه أيضا بالدليل السوسيولوجي ومنطقه المتين كما سنبين ذلك في العنصر الموالي وعنوانه:

3- العواقب غير المتوقعة للحداثة Conséquences imprévues de la modernité :

نود أن نشير في البداية الى أن الحداثة هي نمط عيش (un mode de vie) أكثر مما هي معرفة. ولقد كان الاعتقاد أن هذا النمط سيصل إلى حالة نهائية من تمام النوعية وكمال الجودة. ذلك أن انسان الحداثة جدير بأن يقدّم رفاهه وسعادته وميوله وإرادته على كل شيء بما في ذلك المجتمع نفسه[1].

إن الحداثة تعطي الأصالة للإنسان الفرد وليس للإنسان الحاضر في الجماعة [2]، كما تعطي الأصالة للإنسان الحر الصانع لقدره بإرادته المطلقة بعيدا عن القدر الإلهي. وهي تعزز فيه نزعات الفردية والليبرالية والتحررية والعلمانية والعقلانية والأداتية والنفعية والحسابية.

ان هذه النزعات كان الهدف منها تعزيز قيمة الانسان الحداثي/ الفرد وتحسين وجوده، غير أن متحقّقها الفعلي الذي لم يخطط له، أي عواقبها غير المتوقّعة، كان دخول هذا الانسان في حالة اغتراب تام مع نفسه ومع الجماعة التي ينتمي اليها وذلك بسبب سطوة فردانيته الموحشة كما يقول ايدغار موران أو الافراط في الفردانية–hyper[3]individualiste كما يقول ايمانيول تود...

ولقد أدى ذلك الى تخلف عاطفي حيث لم يعد الناس قادرين على إيجاد جواب عن حاجتهم للتواصل الانساني والمحبة والاجتماع، كما أدى ذلك الى تخلف أخلاقي في ظل تقهقر روح المسؤولية والتضامن.[4]

لقد كانت العواقب غير المتوقعة للحداثة على الانسان الغربي صعبة. وسيكون ذلك من أسباب تنامي ظاهرة الهجرة غير النظامية.

كيف ذلك؟

---

[1] علي رضا بارهيزكار: تأثيرات الحداثة على الاسرة، مجلة جامعة المعارف العدد 6، ص 100 دراسة الكترونية، تاريخ الزيارة 31.. 3. 2023

[2] علي رضا بارهيزكار: تأثيرات الحداثة على الاسرة. مصدر مذكور سابقا،ة ص 99.

[3] Emmanuel Todd, Aprés l'empire; essai sur la décomposition du systéme amércain (Paris, France, Éditions Gallimard, 2002) p. 48.

1.1 ورد في مولدي بن علية، الأخلاق الإسلامية في عصر ما بعد الأخلاق: رؤية التقليدية الجديدة أو ما بعد الديكولونيالية. موقع مركز نهوض للدراسات والبحوث، 9 نوفمبر، 2023 ، تاريخ الزيارة: 2024/08/05، https://2u.pw/yOukjokU

[4] إدغار موران: نحو سياسة حضارية. ترجمة أحمد العلمي، الدار العربية للعلوم، لبنان،2010، ص 25.

إن الحداثة ظاهرة شاملة وذات آثار عميقة ومهيمنة، ولقد وجدت طريقها الى جميع مجالات الحياة، وعرّضت كل شيء بنحو ما الى تغييرات جذرية محمومة ومبالغ فيها بلغة جيل ليبوفتسكي مسّت ملامح الحياة الاجتماعية بشكل واسع، ولم تكن الأسرة مستثناة من هذه التغييرات.

لقد اهتمت الحداثة بمبدأ اللذة أي بالغريزة الجنسية وخاصة تحريرها. ولقد كان سيغموند فرويد من أهمّ منظري هذه الأطروحة. وأصبح تأمين هذه الغريزة ممكنا في إطار من الحرية الكاملة، إما خارج الزواج في مؤسسات غير شرعية وخاصة منها المخادنة Le concubinage[1]. أو العيش بعزوبية واقتناص اللذة بشكل رغبوي وعابر وذلك من خلال العلاقات الجنسية النزوية الاشباعية الظرفية les relations sexuelles occasionnelles وهي ظاهرة طافحة في الاجتماع الغربي، واكتساح تجارة الجنس ونوادي التعارف الغريزي الجنسي العابر. واما في إطار الزواج المدني الذي تمادت فيه الحرية الفردية الى حد السماح بالزواج المثلي.[2] كما تمادت فيه العقلانية والأداتية والحسابية، كما حددها ماكس قيبر، الى حدّ حوّل الحياة الزوجية الى معادلة اقتصادية نفعية، أي إلى نوع من التبادل القائم على الحساب الدقيق ومنطق الربح والخسارة والمنفعة المحضة والعقلانية المجردة والفردانية المفرطة[3] والتعاقدية الصارمة بعيدا عن منطق العاطفة ومفاهيم التآزر والإعالة والتضحية والايثارية.

ان هذه القيم سببت اختفاء الأسرة كآلية لنقل القيم وإعلاء الرغبات بتزايد الطلب على الجنس عند الأفراد حيث عمل قطاع اللذة على هدم القيم الأخلاقية وإشاعة القيم الاستهلاكية التي أصبحت المعيار الوحيد للحكم على الإنسان. وسمحت بظهور، عوضا عنها، أشكالا جديدة من الأسر المشوهة والممعنة في الشذوذ الى حدّ لم يكن ممكنا مجرد تخيله في السابق: أسرة من رجل واحد وأطفال، إمرأة واحدة وأطفال، رجلان وأطفال، امرأتان وأطفال، رجلان وامرأة

[1] المخادنة هي العيش المشترك بين رجل وإمرأة دون أي رابط شرعي أو قانوني في بيت واحد

[2] في ديسمبر / كانون الأول 2015 ، اعترفت 19 دولة حول العالم بزواج المثليين. هذه الدول هي: كندا، الأرجنتين، بلجيكيا، لوكسمبورغ، البرازيل، فرنسا، آيسلندا، ايرلندا، نيوزيلاندا، الدانمرك، هولندا، النرويج، أسبانيا، جنوب أفريقيا، السويد، البرتغال، الأوروغواي، الولايات المتحدة الأمريكية، المملكة المتحدة (جزر بيتكيرن، إنجلترا، ويلز واسكتلندا فقط)، بالإضافة إلى 4 ولايات مكسيكية.

[3] علي ثابت: نظام الأسرة بين تراحمية الاسلام وتفكيكية الحداثة، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الأغواط المجلد 7 عدد 28 جانفي ، 2018 ص 133.

وأطفال[1]،ألخ...بل تمادى الشذوذ الى ما بعد الجنس وظاهرة الزوفيليا أي ممارسة الجنس مع الحيوان وذلك في سياق التمرد على الجنس الطبيعي والقيم الاخلاقية الجنسية ومخالفة الأعراف.

وظهرت حركة التمركز حول الأنثى feminisme، منذ القرن الثامن عشر ميلادي ثم تطورت الى حركة تسمى نسويّة الجندر أو النوع الاجتماعي[2] التي تدعو الى عدم اعتبار الجنس هو المحدد الأساسي في توزيع الأدوار وتحديد المكانة الاجتماعية بين الرجل والمرأة، لذا أصبحت الفروق التناسلية العضوية بين الرجل والمرأة من ذكورة وأنوثة لا اعتبار لها، وأن الفروق بين الأدوار الاجتماعية القائمة على هذه الفروق التناسلية ليست طبيعية وانما هي ثقافية وتاريخية، فيها من التحكم الذكوري في المرأة والتسلط عليها بقدر ما فيها من استلابها ولذلك لا بد من قيام ثورة لازالة الطبقات الجنسانية[3].

ولقد ترتب عن هذا النوع من الوعي الجندري انعكاسات على الأسرة ومنها أن الزواج الطبيعي: رجل / امرأة، من منظوره، أصبح سجنا للمرأة يجب تقويضه بالثورة عليه. فمؤسسة الزواج فاسدة من أساسها كما تقول سيمون دي بوفوار، وتحررها يكون بقدرتها على الخروج من أصفاد هذه المؤسسة وتكسير الصورة النمطية الإطارية التي صنعها لها المجتمع.[4]

كما أن الانجاب يفسد جمال المرأة ورشاقتها، ويعيب جسدها، حيث يفقده رشاقته ويحطم سوره الحداثي الذي جعل من الجسد نوعا من الأنا الآخر، فهو مكان مميز للرفاهية ولحسن المظهر والتجميل... في مجتمع يعبد ميعة الشباب وفوران الجسد. وأما تربية الأبناء فتعطل حرية المرأة. وأما العناية بشؤون المنزل فتهدر كرامتها...

[1] عبد الوهاب المسيري. دراسات معرفية في الحداثة الغربية،ط1مصر، مكتبة الشروق ،2006 ص 119.

[2] تعتبر كل من سيمون دي بوفوار وبيتي فرايدان وكات جيليت واضعات المرتكزات النظرية لهذه الحركة.

[3] طه عبد الرحمن: روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، ط 1 بيروت 2006، ص 111.

[4] أحمد سالم الأحمر: علم اجتماع الأسرة، بين التنظير والواقع والتغيير، ط 1 ، دتر الكتاب لبنان، 2004 ص 140. ورد في : علي ثابت: نظام الأسرة بين تراحمية الاسلام وتفكيكية الحداثة، مصدر مذكور سابقا، ص137.

لقد ترتب عن هذا المنوال القيمي الحداثي عواقب وخيمة على المستوى الديمغرافي تمثلت أساسا في تناقص أعداد الشبان والشابات الراغبين في الزواج تناقصا حرجا الامر الذي خفض في الخصوبة الى مستويات دنيا تؤشر لتناقص حاد جدا في عدد السكان كما تهرّم السكان بشكل لافت.

هذه التحولات القيمية التي أدت الى هذا التناقص في عدد السكان كتب عنها باتريك بوشانان Patrick J. Buchanan كتابا صادما[1] إذ بشّر فيه بموت الغرب وانتهائه.

يقول: إن الغرب يموت، لقد توقفت أممه عن التكاثر، وتوقف سكانه عن النمو وبدؤوا بالإنكماش، ولم يقم منذ الموت الأسود الذي حصد أرواح ثلث سكان أوروبا في القرن الرابع عشر تهديدا أخطر لبقاء الحضارة الأوروبية من هذا الخطر الماثل اليوم. هناك سبعة عشر بلدا أوروبيا فيها جنازات دفن أكثر من احتفالات الولادة[2]

ولمزيد التوضيح، في العام 1960 كان السكان المنحدرون من أصول أوروبية يشكلون ربع سكان العالم، وفي العام 2000 كانوا يشكلون السدس، وأما في العام 2050 فسوف يشكلون عشر سكان العالم، في الحقيقة هذه الإحصاءات عن جنس يتلاشى، هذه الحال من النذر المشؤومة خلقت إحساسا بتوجس الشر بل بالذعر في أوروبا.[3]

إن كل الدراسات تؤكد أن تراجع سكان الاتحاد الأوروبي خلال الأربعين عاما القادمة ستصل إلى أكثر من خمسين مليون نسمة وأن ارتفاع نسبة الشيخوخة ستصل إلى مستويات قياسية أما متوسط الأعمار فسيزيد عشرة أعوام[4]. إن ديمغرافية العجائز تصبغ أوروبا...والعجائز سرعان ما يموتون هم أيضا بسبب قوانين الموت البيولوجي. والنتيجة فإن هذه القارة تتجه حثيثا نحو الموت.

---

[1] باتريك جيه بوكانن : موت الغرب: أثر شيخوخة السكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب. ترجمة محمد محمود التوبة، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى المملكة العربية السعودية، 2005،

[2] باتريك جيه بوكانن : موت الغرب، مصدر مذكور سابقا، ص 27.

[3] المصدؤ السابق ، ص 33.

2 [4] دويتشه فيله، دراسة تكشف عن تراجع خطير للنمو الديمغرافي في أوروبا، موقع DW، نشر 2008/8/22، شوهد في 2024/08/02

إن الموت الذي يلوح في أفق الغرب حسب بوشانان هو في الحقيقة موتان:

موت أخلاقي بسبب الانهيار الأخلاقي الذي ألغى كل القيم التربوية والأسرية والأخلاقية التقليدية، وموت ديمغرافي وبيولوجي (النقص السكاني بالموت الطبيعي للمسنين).

ويظهر بوضوح في السّجلات الحكومية التي تشير إلى التراجع الحاد في نسب الولادات في الغرب واضمحلال القوى البشرية وإصابة ما تبقّى منها بشيخوخة لا شفاء منها إلا باستقدام مزيد من المهاجرين الشبان. يقول في هذا الصدد اشتفّن كرونيرت وهو الخبير في معهد برلين للسكان والتنمية إنه من دون الهجرة لا يمكن لأوروبا تحقيق نمو ديمغرافي مستقر.[1] والذي يعزز هذه الفرضية وضوح الأرقام والمؤشرات:

فوفقا للإحصاءات الحديثة، فقد هبط معدل الخصوبة المتوسط عند المرأة الأوروبية إلى 4 ،1 طفل علما أن الحاجة تدعو الى 1،2 طفل وذلك لمجرد تعويض السكان الموجودين حاليا دعك من الحديث عن زيادة عددهم. وهذا لا يعني صفر نمو، هذا يعني صفر سكان[2] بتعبيرة واتينبيرغ.[3] وإذا بقيت معدلات الخصوبة الحالية على ما هي عليه، فإن سكان أوروبا البالغ عددهم 728 مليون نسمة بحسب إحصاء عام 2000م سيتقلصون إلى 207 ملايين في نهاية هذا القرن أي إلى أقل من الثلث.

فبالنسبة لألمانيا مثلا، إذا استمر المعدل الحالي للمواليد في هذا البلد على حاله، وكانت الهجرة صفرا، فإن عدد سكانه سوف يهبط من 82 مليون نسمة الى 38 مليون نسمة مع حلول نهاية القرن وهو نزول بنسبة 53% [4]. إن الوضع الديمغرافي في هذا البلد بمثابة قنبلة زمنية موقوتة تدق.[5]

---

[1] نفس المصدر.

[2] باتريك جيه بوكانن : موت الغرب، مصدر مذكور سابقا، ص 34.

[3] لقد كتب واتنبيرغ كتابا قيما حول انعكاسات تناقص الانجاب في أوروبا، أنظر

3 Ben J. Wattenberg ; The Birth Dearth: What Happens When People in Free Countries Don't Have Enough Babies? Pharos Books ; January 1, 1987.

[4] Joseph Chamie ; director United Nations Population Division ; Letter to Author ; January 17 ; 2001 Cit in : باتريك جيه بوكانن موت الغرب ص 38.

[5] Toby Helm , Stoiber Pins poll hopes on cash for Babies Plan ; Daily Telegrahp , January ,3, 2001 P 17.Cit in جيه بوكانن : موت الغرب ص 38.

وبالنسبة لإيطاليا فقد تراجع عدد لمواليد في هذا البلد للسنة الخامسة عشر على التوالي، وفي سنة 2023 سجل هذا التراجع مستوى غير مسبوق.. إن هذا التراجع يمثل حالة طوارئ وطنية.[1]

يقول عالم السكان الايطالي أنطونيو غوليني " في سوق عمالة معولم على نحو متزايد، كيف يمكن لنا، كإيطاليين، أن ننافس دول العالم بمجتمع مثل مجتمعنا الشائخ وبعدد قليل من الشباب بمثل هذا الحال؟". ويضيف "إن الأمة تعتمد منذ مدة على المهاجرين ليحملوا عبء نظامها التقاعدي المدين بعمق، ولكن الثقافة الإيطالية الآن في خطر.. إن إيطاليا لن تكون بعد الآن إيطالية ...ستكون نهاية المجتمع كما نعرفه"[2]

أما بولندا فلقد احتدمت فيها أزمة الإنجاب الى الحد لذي دعت فيه مواطنيها للتكاثر "مثل الأرانب!" وذلك في فيديو دعائي مثير في إطار حملة اعلامية كبيرة لحث المواطنين على التكاثر.[3]

إن موت الغرب ليس تنبؤا بما سيحدث، إنه تصوير لما يحدث الآن، إن كل خبراء الديمغرافيا الغربيين يجزمون بهذه الحقيقة حتى أن الديمغرافي الإيطالي أنطونيو غوليني سمي من باب التندّر، ولكنه تندر رمادي " الإرهابي الديمغرافي، وذلك لدراساته وتصريحاته التي تخيف وترعب من المستقبل الديمغرافي لإيطاليا خاصة والغرب عامة.

إن المجتمعات الغربية تموت بسبب ما لا يحدث في بيوتها، أي الإنجاب، ذلك لأن الحداثة حولت العملية الإنجابية عائقا أما الحياة الفردية بالمعنى اللّذي الفرداني الحيسوبي المقاولاتي للحياة.

وفي المقابل، في الوقت الذي تموت فيه أوروبا لنقص المواليد، يشهد العالم الثالث الهند والصين ودول أمريكا اللاتينية، ودول إفريقيا، انفجارا سكانيا لم يسبق له مثيل فقد ارتفع عدد سكان نيجيريا، مثلا، الواقعة في غرب إفريقيا إلى 216 مليونًا، ومن المتوقع أن يصل إلى 375 مليونًا خلال العقود الثلاث المقبلة.[1]

---

[1] عدد المواليد في إيطاليا يتراجع للعام ال15 على التوالي لمستوى غير مسبوق، موقع CNBCعربية، منشور في 29 مارس 2024، شوهد في 2024/08/03.أنظر https://2u.pw/EWa1SmRJ

[2] Susan H. Greenberg, The Rise Of The Only Child, Newsweek, Published Apr 22, 2001 Updated Mar 13, 2010, Date of visit, 03/ 08/ 2024, https://2u.pw/gkTE7iee

4 [3] بولندا لمواطنيها: تكاثروا "مثل الأرانب!"، الموقع الألكتروني DW منشور في 11/ 11/ 2007، تاريخ الزيارة 03/ 08/ 2024. https://2u.pw/IKO9ivvX

وبحسب توقع تقرير للأمم المتحدة سيزدياد عدد الأطفال في أفريقيا بمقدار 170 مليون طفل من الآن وحتى عام 2030، ليصل بذلك عدد الأشخاص دون الثامنة عشرة إلى 750 مليون نسمة[2].

إن هذه الأرقام والإحصائيات تصبح مخيفة بالنسبة للغرب وذلك إذا قارناها مقاربة تنبؤية علمية من نواحي ثلاث: شيخوخة السكان في الغرب وتراجع خصوبته وتوقف نموه الديمغرافي، هذا من ناحية، من ناحية ثانية شباب السكان في العالم النامي وخاصة إفريقيا وازدياد الخصوبة في هذه الدول وارتفاع نموها الديمغرافي، أما الناحية الثالثة فتزايد عدد المهاجرين من الدول النامية الى أوروبا ..

إن الاستشراف العلمي يبرر كابوس الغرب ويصبغ عليه صبغة واقعية: بأن أوروبا ستصبح بكل بساطة ملكا للمهاجرين بعد وقت ليس بالبعيد! بل ويمكن حسابه بمعادلات احصائية استشرافية دقيقة...

غير أن هذا الكابوس صنعه الغرب نفسه بعواقب لم يتوقعها باستعماره للدول النامية وبذهابه بعيدا في حداثة قضت على الأسرة وعلى فكرة الانجاب.

إن منع موت الغرب لا يكون الا بطريقتين: إما عودة الأسرة ووعي نسوي غربي جديد بأن الحياة الجيدة تكمن في تكوين أسرة وإنجاب الأطفال وتربيتهم وإرسالهم الى العالم ليتابعوا استمرارية النسل وبالتالي الاجتماع الغربي، وهذا صعب لأن قيم الحداثة انغرست عميقا في ثقافة الغرب ووعيه الجمعي وتحكّمت في كل توازناته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وسحر مفاهيم الفردية والحرية والسوق والرفاه الشخصي والانفاق اللّذّي والتحرر من الأعباء ...، وهو يفاخر بذلك. وإما الهجرة في إطار ما يمكن تسميته بالإنعاش الديمغرافي للغرب. وهذا واقع يتعزز كل يوم. والأرقام والدراسات العلمية الجادة، تنذر باجتياح المهاجرين لأوروبا.

4- على سبيل الخاتمة

---

1 أفريقيا تقود النمو السكاني العالمي وسط تحديات مناخية ضخمة، الموقع الإلكتروني عربية Sky News في17 نوفمبر 2022، تاريخ الزيارة 2024/8/3. https://2u.pw/YI0VNOnT

5 [2]**اليونيسف: النمو السكاني في أفريقيا سلاح ذو حدين، عائد تنموي أو كارثة، الموقع الالكتروني للأمم المتحدة**، في 26 تشرين الأول/أكتوبر 2017، تاريخ الزيارة 2024/8/3، https://2u.pw/2gOM6C

لقد حاولنا في هذه الدراسة أنْ نفهم دوافع الهجرة غير النظامية الى أوروبا، ولقد انتهينا الى سببين هامين كانا وراء تعاظم هذه الظاهرة وهما العواقب غير المتوقعة للاستعمار Conséquences imprévues du colonialisme والعواقب غير المتوقعة للحداثة Conséquences imprévues de la modernité

أما النتائج غير المتوقعة فهو ما نشهده من موجات تسونامي بشرية لا نتوقع أنها سوف تتوقف قريبا وإنما نتوقع ارتفاع نسقها، تنطلق، في إطار الهجرة النظامية وخاصة غير النظامية، من مختلف الدول النامية وخاصة دول افريقيا لتكتسح بقوة العدد وثقله سواحل أوروبا.

ولقد قرأ الفريد سوفي جيدا السيرورة التاريخية لظاهرة الهجرة هذه وذلك في ضوء الأرقام والظواهر والمتغيرات، واستشرف صيرورتها كنتيجة حتمية لمقدماتها، وسمى الأسماء بأسمائها: الجنوب سوف يجتاح الشمال.

وأما النتائج غير المتوقعة للحداثة فنتيجته ما توقعه بوشانان من موت محدق بالغرب، تفصيله موت أخلاقي بسبب الانهيار الأخلاقي الذي ألغى كل القيم التربوية والأسرية والأخلاقية التقليدية، وموت ديمغرافي وبيولوجي نتيجة التناقص السكاني الحاد بسبب ضعف الانجاب وتهرم السكان والموت الطبيعي للمسنين الذي لا يعوضه الانجاب. وما من حل أمام هذا التهديد بالموت الديمغرافي إلا ما أسميناه بالإنعاش الديمغرافي عبر الهجرة وهو حل يعزز فرضية ألفريد سوفي حول اجتياح الجنوب للشمال.

- المراجع:

أبو هيف عبد الله: الغزو الثقافي والمفاهيم المتصلة به، مجلة النبأ، العدد (63)، نوفمبر

ا لأحمرأحمد سالم: علم اجتماع الأسرة، بين التنظير والواقع والتغيير، ط 1 ، دتر الكتاب لبنان، 2004.

بن علية مولدي ، الأخلاق الإسلامية في عصر ما بعد الأخلاق: رؤية التقليدية الجديدة أو ما بعد الديكولونيالية. موقع مركز نهوض للدراسات والبحوث، 9 نوفمبر ، 2023 ، تاريخ الزيارة: 2024/08/05، https://2u.pw/yOukjokU

بوكانن باتريك جيه : موت الغرب: أثر شيخوخة السكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب. ترجمة محمد محمود التوبة، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى المملكة العربية السعودية، 2005،

بن سعد محمّد جلال: الانقطاع المدرسي : دراسة علميّة تحليلية للنموذج التونسي. موقع الكتروني: تحاليل. تاريخ الزيارة 29.3.2023.

بارهيزكار: علي رضا تأثيرات الحداثة على الاسرة، مجلة جامعة المعارف العدد 6، ص 100 دراسة الكترونية، تاريخ الزيارة 31 /3/ 2023

ثابت علي ، نظام الأسرة بين تراحمية الاسلام وتفكيكية الحداثة مجلة العلوم الاجتماعية – جامعة الأغواط– المجلد:7 عدد: 82جانفي 2018.

عبد الرحمن طه: روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، ط 1 بيروت 2006.

العلكيم حسن حمدان: قضايا إسلاميَّة معاصرة. مركز الدراسات الآسياوية، ط 2 القاهرة. 1997.

القديدي أحمد كيف تنبأ عالم الديمغرافيا باجتياح أوروبا منذ 1985.

لاتوش سيرج ، " تغريب العالم "، المؤسسة العربية للنشر والابداع، 1993.

موران:إدغار نحو سياسة حضارية. ترجمة أحمد العلمي، الدار العربية للعلوم، لبنان،2010.

المسيري عبد الوهاب. دراسات معرفية في الحداثة الغربية،ط1مصر، مكتبة الشروق ،2006 .

المراجع باللغات الأجنبية:

Chamie Joseph ; director United Nations Population Division ; Letter to Author ; January 17 ; 2001

Greenberg Susan H., The Rise Of The Only Child, Newsweek, Published Apr 22, 2001 Updated Mar 13, 2010, Date of visit, 03/ 08/ 2024, https://2u.pw/gkTE7iee

Phillipson, R. , L'impérialisme linguistique édition indienne éd. Delhi : Oxford University Press 2007 .

Toby Helm , Stoiber Pins poll hopes on cash for Babies Plan ; Daily Telegrahp , January ,3, 2001 .

Todd Emmanuel, Aprés l'empire; essai sur la décomposition du systéme amércain (Paris, France, Éditions Gallimard, 2002).

Sauvy Alfred L'Europe submergée : Sud-Nord dans 30 ans – Paris : Dunod 1987.

Wattenberg Ben J. ; The Birth Dearth: What Happens When People in Free Countries Don't Have Enough Babies? Pharos Books ; January 1, 1987.